



إنَّ للتعبد بالألَّامِ والصِّفاتِ آثاراً كثيرةً على قلب العبد وعمله، قال العُزُّ بن عبد السلام: "اعلم أنَّ معرفة الذَّات والصِّفات مثمرة لجميع الخيرات العاجلة والأجلة، ومعرفة كلِّ صفة من الصفات تثمر حالاً علَيَّ، وأفعالاً سنية، وأفعالاً رضيَّة، ومراتب دنيوية، ودرجات أخرى، فمتلَّ معرفة الذَّات والصِّفات كشجرة طيبة أصلُها – وهو معرفة الذَّات – ثابت بالحجَّة والبرهان، وفرعُها – وهو معرفة الصِّفات – في السماء مجدًا وشرفًا، ﴿تُؤْتَيِ الْكُلُّا كُلَّ حِينٍ﴾ من الأحوال والأقوال والأعمال ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: 24، 25]، وهو خالقُها؛ إذ لا يحصل شيءٌ من ثمارها إلا بإذنه و توفيقه، مَبْنَى هذه الشَّجَرة القلب الذي إنْ صلح بالمعرفة والأحوال صلح الجسدُ كُلُّه" [1].

وَهَذِهِ إِشَارَةٌ موجِزَةٌ إِلَى بَعْضِ أَوْلَى تَلَكَ الْآثَارِ:

أولاً: محبة الله:

مَنْ تَأْمَلُ أَسْمَاءَ اللهِ وصَفَاتِهِ وَتَعْلَقُ قَلْبَهُ بِهَا طَرَحَهُ ذَلِكَ عَلَى بَابِ الْمُحَبَّةِ، وَفَتَحَ لَهُ مِنَ الْمَعَارِفِ وَالْعِلُومِ أَمْوَارًا لَا يَعْبُرُ عَنْهَا [2]، وَإِنَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ أُورَثَهُ ذَلِكَ الْمُحَبَّةَ لِهِ سِيَاحَهُ وَتَعَالَى، قَالَ ابْنُ الْجُوَزِيَّ: "فَيَنْبَغِي الاجْتِهَادُ فِي طَلَبِ الْمَعْرِفَةِ بِالْأَدَلَّةِ، ثُمَّ الْعَمَلُ بِمَقْتَضِيِّ الْمَعْرِفَةِ بِالْجَدِّ فِي الْخَدْمَةِ لِعَلَّ ذَلِكَ يُورِثُ الْمُحَبَّةَ... فَذَلِكَ الْغِنَى الْأَكْبَرُ، وَوَافَقَرَاهُ" [3].

ومراده أنَّ من عرف الله أَحْبَهُ، ومنْ أَحْبَبَ الله أَحْبَهُ اللَّهُ، وذلك واللهُ هو الفوز العظيم والجنة والنعيم، والمحبَّةُ هي المنزلة التي "فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلَمَها شَمَرُ السَّابِقُونَ، وعليها تفاني المحبُّونَ وبروح نسميتها تروح العابدون، فهي قوت القلوبِ وغذاء الأرواح وقرة العيون، وهي الحياة التي مَنْ حُرِّمَها فهو من جملة الأموات، والنُّورُ الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشِّفاء الذي من عدمه حَلَّتْ بقلبه جميعُ الأَسْقَامِ، واللَّذَّةُ التي من لم يظفرُ بها فعيشهُ كله همومُ وألام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال، والتي متى خَلَّتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه" [4].

حُبُّ الله هو الفطرة:

وحبُّ الله هو فِطْرَةُ القلبِ التي فُطِرَ عليها، قال ابن تيمية: "والقلب إنَّما خُلِقَ لأجل حُبِّ الله تعالى، وهذه الفِطْرَةُ التي فَطَرَ اللهُ عَلَيْها عِبَادَهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبْوَاهُ يَهُوَدَانُهُ أَوْ يَنْصَرِفُ إِلَيْهِ أَوْ يَمْجَسَانُهُ، كَمَا تَنْتَجُ الْبَهِيمَةُ جَمِيعَهُ مَنْ تَحْسُنُ فِيهَا مِنْ جَدَاعَهُ)), ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَفَرَأَوْا إِنْ شَئْتُمْ: ﴿فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخُلُقِ اللَّهِ﴾ [الروم: 30]; أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، فَاللَّهُ سَبَّحَهُ فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَى مَحْبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، فَإِذَا تُرَكَتِ الْفِطْرَةُ بِلَا فَسَادٍ كَانَ الْقَلْبُ عَارِفًا بِاللَّهِ مَحِبًّا لَهُ عَابِدًا لَهُ وَحْدَهُ" [5].

ومن سُلَكَ طرِيقَ التَّأْمُلِ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَلَا حَاجَةٌ نَعَمْ اللَّهُ عَلَيْهِ كَيْفَ لَا يَكُونُ حُبُّ اللَّهِ عَالِيًّا أَعْظَمَ شَيْءٍ لِدِيهِ، قال أبو سليمان الواسطي: "ذِكْرُ النَّعَمِ يُورِثُ الْمُحَبَّةَ" [6]، وقال ابن القيم: "إِذَا انْضَمَ دَاعِيُ الْإِحْسَانِ وَالْإِنْعَامِ إِلَى دَاعِيِ الْكَمَالِ وَالْجَمَالِ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ مَحْبَّةِ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ إِلَّا أَرْدَأَ الْقُلُوبَ وَأَخْبَثَهَا وَأَشَدَّهَا نَقْصًا وَأَبْعَدَهَا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ فَطَرَ الْقُلُوبَ عَلَى مَحْبَّةِ الْمُحْسِنِ الْكَامِلِ فِي أَوْصَافِهِ وَأَخْلَاقِهِ، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا قُلُوبَ عِبَادِهِ، فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا أَحَدَ أَعْظَمُ إِحْسَانِاً مِنْهُ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى، وَلَا شَيْءٌ أَكْمَلَ مِنْهُ وَلَا أَجْمَلُ، فَكُلُّ كَمَالٍ وَجَمَالٍ فِي الْمُخْلُوقِ مِنْ آثَارِ صَنْعِهِ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ الَّذِي لَا يُحِدُّ كَمَالَهُ وَلَا يُوصَفُ جَلَالَهُ وَجَمَالَهُ، وَلَا يُحْصِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ ثَنَاءً عَلَيْهِ بِجَمِيلِ صِفَاتِهِ وَعَظِيمِ إِحْسَانِهِ وَبَدِيعِ أَفْعَالِهِ؛ بَلْ هُوَ كَمَا أَنْتَى عَلَى نَفْسِهِ، وَإِذَا كَانَ الْكَمَالُ مُحِبَّوْا لِذَاتِهِ وَنَفْسِهِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الْمُحِبُّ لِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ؛ إِذَا لَا شَيْءٌ أَكْمَلَ مِنْهُ، وَكُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ دَالَّةٌ عَلَيْهِ، فَهُوَ الْمُحِبُّ الْمُحَمَّدُ عَلَى كُلِّ مَا فَعَلَ وَعَلَى كُلِّ مَا أَمْرَهُ؛ إِذَا لَيْسَ فِي أَفْعَالِهِ عَبَثٌ وَلَا فِي أَوْامِرِهِ سُفَهٌ، بَلْ أَفْعَالِهِ كُلُّهُ لَا تَخْرُجُ عَنِ الْحُكْمَ وَالْمُصْلَحَةِ، وَالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ يَسْتَوْجِبُ الْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ وَالْمُحَبَّةَ عَلَيْهِ، وَكَلَامُهُ كُلُّهُ صِدْقٌ وَعَدْلٌ، وَجَزَاؤُهُ كُلُّهُ فَضْلٌ وَعَدْلٌ؛ فَإِنَّهُ إِنْ أَعْطَى فَبِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَنِعْمَتِهِ، وَإِنْ مَنَعَ أَوْ عَاقَبَ فَبِعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ.

ما لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ *** كَلَّا وَلَا سُعِيَ لِدِيهِ ضَائِعٌ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعَمِّوا *** فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ" [7].

سُرُورُ الْقَلْبِ بِمَحْبَّةِ اللَّهِ:

وَإِذَا شَمَرَ الْعَبْدُ إِلَى تِلْكَ الْمَنْزَلَةِ وَرَأَمِ الْوَصْوَلَ إِلَيْهَا، وَعَرَفَ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ وَصَفَاتِهِ – التَّفَتَ الْقَلْبُ إِلَى اللَّهِ وَخَلَا عَنْ كُلِّ مَا عَدَاهُ فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحْبَبَ إِلَيْهِ مِنْهُ، وَلَمْ تَبْقَ لَهُ رَغْبَةٌ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا فِيمَا يَقْرِبُهُ إِلَيْهِ وَيَعْيَنُهُ عَلَى سَفَرِهِ إِلَيْهِ" [8].

قال يحيى بن أبي كثیر: "نَظَرَنَا فَلَمْ نَجِدْ شَيْئًا يَتَلَذَّذُ بِهِ الْمُتَلَذِّذُونَ أَفْضَلُ مِنْ حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى وَطَلَبُ مَرْضَاتِهِ".

فَكَانَ لِسَانُ الْحَالِ يَقُولُ:

كُلُّ مَحِبُّ سُوِّيَ اللَّهِ سَرَفْ *** وَهُمُومٌ وَغُمُومٌ وَأَسْفٌ
كُلُّ مَحِبُّ لِهِ مِنْهُ خَلَفٌ *** مَا خَلَ الرَّحْمَنُ مَا مِنْهُ خَلَفٌ" [9].

وقال ابن تيمية: "وليس للقلوب سرورٌ ولا لذة تامة إلّا في محبة الله والتقرُّب إليه بما يحبُّه، ولا تمكن محبَّته إلّا بالإعراض عن كلِّ محبوبٍ سواه، وهذا حقيقة لا إله إلّا الله" [10].

محبة الله باعث التوحيد والطاعة:

ولذا كانت محبة الله مقتضية لعدم التشريك بينه وبين غيره؛ فهي باعث التوحيد، إلّا ترى أنَّ القلب له وجه واحد: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: 4]، فإذا مال إلى جهة لم يمل إلى غيرها، وليس لأحد قلبان؛ يوحّد بأحدهما، ويشرك بالآخر [11].

قال صديق حسن: "محبة الله إذا استغرق بها القلب واستولت عليه لم تبعث الجوارح إلّا إلى مراضي الرب، وصارت النّفس حينئذ مطمئنة بإرادة مولاه عن مرادها وهاها، يا هذا اعبد الله لمراده منك لا لمرادك منه"، وقال: "من امتلأ قلبه من محبة الله لم يكن فيه فراغ لشيء من إرادة النّفس والهوى" [12].

فإلى من ابْتُلَى بهواه حتى ألمَ به من جوانبه وأعيابه، هذا هو الدّواء لكل داء والبلسم للشفاء، تأمَّل في أسماء الخالق العظيم وصفاته لتلتَّمَس محبته وما يقربك إليه.

وإذا أردت كمال العبوديَّة فاعمل أَنَّه تابع لكمال المحبَّة، وذلك تابع لكمال المحبوب في نفسه، ولما أنَّ كان الله تعالى له الكمال المطلق من كلِّ وجِه بِحيث لا يتعريه توهُّم النَّفَس فإنَّ القلوب السليمة والفطر المستقيمة والعقول الحكيمية لا تلتَّفت إلَّا إليه ولا ترِيد أحداً سواه ولا تقبل بحُبها إلَّا إليه سبحانه، وحينذاك فلا تُقْبِل إلَّا لما تقتضيه تلك المحبَّة من عبوديَّته وطاعته، واتباع مرضاته واستفراغ الجهد في التعبد له والإناية إليه.

قال ابن القيم: "هذا الباعث أكمل بواعث العبوديَّة وأقواها، حتى لو فرض تجُّرُّده عن الأمر والنهي والثواب والعقاب استفرغ الوسْع واستخلص القلب للمعبد الحق" [13].

وإِيَّاكَ أَنْ يخلُو قلبك من الحبِّ لله تعالى، أو أنْ تملأه من محبَّة غيره؛ فإنَّ الله تعالى يغادر على قلب عبده أن يكون معرضًا عن حبِّه، فالله تعالى خلَقَ لنفسه واختارك من بين خلقه، ولتعلم أَنَّ الله تعالى إذا أراد بعده خيراً سُلْطَ على قلبه إذا أعرض عنه واستغَلَ بحُبِّ غيره أنواعَ العذاب حتى يرجع قلبه إليه، وإذا استغَلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاء [14].

وبعد هذا الْهُجُّ بقولك: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ حَبَّكَ وَحَبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحَبَّ عَمَلٍ يَقْرَبُ إِلَيْ حَبِّكَ)) [15]؛ فقد كان هذا من دعاء سيد المحبين صلى الله عليه وسلم، فأكثُر منه لعلَّ الله تعالى أن يفتح لك الباب؛ فإنَّ من أكثر الطرق ولَجَ بإذن الله تعالى.

[1] شجرة المعارف والأحوال (14، 15).

[2] انظر: مفتاح دار السعادة (1 / 286).

[3] صيد الخاطر (70).

[4] "مدارج السالكين" (3 / 6، 7).

[5] مجموع الفتاوى (10 / 134، 135)، والحديث في البخاري (1358)، ومسلم (2658).

[6] "المحبَّة لله سبحانه"؛ لإبراهيم بن الجنيد (24).

[7] "طريق الهجرتين" (521).

[8] روضة المحبين (406).

[9] "المحبة لله سبحانه"; إبراهيم بن الجنيد (44، 101).

[10] مجموع الفتاوى (28 / 32).

[11] انظر: روضة المحبين (295).

[12] الدين الحالص (1 / 167).

[13] مفتاح دار السعادة (2 / 88، 89).

[14] انظر: روضة المحبين (310).

[15] رواه الترمذى (3235)، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (2582).

الألوكة

المصادر: